قمص وضابط

15

القمص مرقص عزيز،اسم يعرفه الأقباط جيدا،كما يعرفه المسلمون أيضا، رجل دين مسيحى معروف بعصبيته وتطرفه الشديد فى الدفاع عن المسيحية،ظل لسنوات طويلة كاهنا للكنيسة المعلقة فى مصر القديمة،وقد يكون منصبه هذا سرا لشهرته، فهو يستقبل زوار الكنيسة الأثرية من المسيحيين والمسلمين وبينهم مسؤولون كبار.

لكن سر شهرته الأكبر أنه كان يصدر نفسه على أنه شخصية عامة، يكتب فى الصحف، ويشارك فى الملتقيات العامة،بل ويمارس السياسة من خلال الاندماج فى التشكيلات السياسية،فقد انضم إلى حزب الغد بل وأصبح عضوا فى الهيئة العليا به.

وهنا لابد من نقطة نظام،إن رجل الدين المسيحى ليس له أن يشترك فى أى حزب سياسى،لأن ذلك يمكن أن يلحق الضرر البالغ بدوره الذى يقوم به،ففى رقبته رعاة يسيرون خلفه ويأخذون منه قدوة،والمعنى واضح فهم عندما يجدون رجلهم منضما إلى حزب بعينه يمكن أن ينضموا إليه لا لشىء إلا لأن أباهم انضم إلى هذا الحزب،وفى ذلك مصادرة تامة على ما يريده الأقباط.

تحتج الكنيسة بأن رأيها أو اختيارها لا يكون ملزما لرعاياها وأنها مثلا عندما تؤيد حزبا معينا أو مرشحا ما في الانتخابات البرلمانية أو الرئاسية فإنه ليس معنى ذلك أنها تلزم رعاياها إلزاما حاداً بالانحياز إلى اختيارها،وهو كلام نظرى إلى حد كبير،فلابد أن الأقباط سينحازون إلى اختيار الكنيسة وانحيازها لأنهم يثقون فيها ويطمئنون إلى اختيار آبائهم الكهنة.

ليس هذا هو المهم ولكن المهم هو تفرقة الكنيسة فى التعامل مع رجالها الذين يعملون فى السياسة،فهى لا تسامح أحدا يعمل فى السياسة،إذا كان عمله هذا يتعارض أو يتناقض مع ما تريده أو تذهب إليه مباحث أمن الدولة،لكن إذا كانت ممارسة العمل السياسى تتم فى إطار من الهدوء والتوافق مع الخط العام الذى ترتضيه أمن الدولة فلا غبار على ما يجرى تحت سمع وبصر الكنيسة.

مرقص عزيز يقع فى القلب من هذه الإشكالية التى يحكمها التناقض،فعندما انضم القس فلوباتير كاهن كنيسة الطوابق بفيصل إلى حزب الغد أيام قوته وفتونته برئاسة أيمن نور وكتب عدة مقالات فى جريدة الغد ينتقد فيها النظام المصرى وينتقص من قامة الرئيس المصرى،بل إنه كتب مهاجما مباحث أمن الدولة متهما إياها بأنها كانت وراء أزمة مسرحية «كنت أعمى فأبصرت»التى أشعلت النار فى محرم بك بالإسكندرية،تصدت له الكنيسة وحاكمته وعزلته عن عمله عامين كاملين.

أما مرقص عزيز والذى انضم إلى نفس الحزب،لكن بعد أن ضربه الوهن فلم

يعترض طريقه أحد،كان حزب الغد قد حدث فيه انقسام حاد قاده موسى مصطفى موسى نائب رئيس الحزب الأول السابق،ووقف بالمرصاد لأيمن نور ومن معه، انضم مرقص إلى مجموعة موسى،كتب فى جريدتهم،وحضر اجتماعاتهم،وكان موجودا وبقوة فى كل فاعليات الحزب.

لم تعترض الكنيسة على انضمام مرقص عزيز إلى حزب الغد فرع موسى،كما فعلت واعترضت على انضمام فلوباتير إلى حزب أيمن نور،وهو ما يجعل السؤال عن الدور السياسى الذى كان يلعبه مرقص عزيز مشروعا ومنطقيا؟وهل كان هذا الدور مدعوما من الأمن،حيث كان القمص لا يخرج عن الدور المرسوم له بدقة،فحتى وهو يدافع عن القضايا القبطية،كان يفعل ذلك من أرضية هادئة لا تثير الصخب ولا الغبار من حولها.

إن الدور الذى كان يلعبه مرقص عزيز وهو الاشتباك الدائم لس مع الكتاب والمثقفين فقط حول ما يكتبونه أو يذهبون إليه فى القضايا القبطية،ولكن مع المسئولين الرسميين أيضا حول قرارتهم التى كان يرى فيها اضطهاد من نوع ما للأقباط،كان دورا موظفا بعناية كبيرة فى المنظومة الأمنية التى تدار من خلالها قضايا الأقباط.

وهى المنظومة التى يريد من يقفون خلفها أن يقولوا: إن الصوت القبطى ليس مخنوقا ولا خافتا،والدليل هو ما يكتبه ويقوله ويفعله مرقص عزيز،فلو أن النظام المصرى يمنع الأقباط من الكلام والتعبير،لكان منع مرقص عزيز من الكتابة خاصة أن كثيرا مما يكتبه مستفز لدوائر الإسلاميين فى مصر،وهو ما يمكن أن يزيد من حدة الاحتقان الطائفى.

لا أستبعد بالطبع أن يكون تنسيقا من نوع ما بين مرقص عزيز والأمن،فلا يوجد شيء بعيدٌ فى هذا الملف الشائك،وقد يكون التنيسق مباشرا وقد يكون غير مباشر،لكنه فى النهاية موجود ولا يمكن أن ينكره أحد.

لكن يبدو أن التنسيق الأمنى الذى كان يسمح بالتواجد الدائم والمستمر لمرقص عزيز تضاءل فى العام ٢٠٠٧،خاصة وهو العام الذى شهد إبعاد مرقص عزيز عن مصر،وهو الإبعاد الذى كان ولا يزال غامضا حت الآن.

لقد تناثرت من حوله أسباب كثيرة لخروجه من مصر،منها مثلا أنه تورط فى عمليات تنصير مباشرة،وهذه العمليات كانت تحت سمع وبصر أمن الدولة،وحتى تنتهى المشكلة انحازت الكنيسة إلى أن تخرجه من مصر حتى لا يتسبب فى أزمة كبيرة بين الأمن والكنيسة،ومنها مثلا أنه ومن خلال كتاباته التى كان يستعرض فيها قوته أصبح خطرا على الأمن والسلام الاجتماعي،وأنه يمكن أن يكون سببا من أسباب الفتنة الطائفية،ولذلك كان إبعاده عن مصر أولى وأصلح للجميع.

ومن بين الأسباب التى جعلت خروجه ملحا من مصر أنه وبعد كتاباته الأخيرة تلقى تهديدات بالقتل من جهات معينة عقابا له على موقفه من الإسلام،وأن التهديدات طبقا لتقارير أمن الدولة كانت تقارير جادة ولا هزل فيها،ولذلك كان إبعاده حماية له،بدلا من أن تجد الأجهزة الأمنية نفسها وجها لوجه أمام كثيرة من نوعية قتل الجماعات الدينية لكاهن قبطى،وهو ما لا يستطيع أن يواجهه أحد.

من جانبه وعبر تسجيل تليفزيونى نفى مرقص عزيز أن يكون خرج من مصر لأى سبب من هذه الأسباب،وأنه سافر إلى أمريكا فى رحلة رعوية بتكليف مباشر من البابا شنودة،وأنه سيستمر فى رحلته الرعوية تلك إلى أن يأمر البابا بعودته مرة أخرى،لكن كلمات الرجل كانت تخفى خلفها الكثير،فهو لم يصرح بالسبب الحقيقى، وأعتقد أنه لن يصرح به.

لكن ما يؤكد أن العلاقة بين القمص مرقص عزيز وأمن الدولة كانت سيئة للغاية لحظة خروجه من مصر،هو ما قاله شخصيا فى حوار مطول مع موقع «الأقباط متحدون»،وأجرى الحوار فى ١٩ يونيو ٢٠٠٩ أى بعد خروج مرقص من

مصر بحوالى عامين ونصف تقريبا فقد خرج منها فى يناير ٢٠٠٨،وقد وصف فيه الصورة التى خرج بها من مطار القاهرة.

حاول مرقص عزيز فى حواره أن يخفف من وطأة وحدة خروجه من مصر،وإذا كان البعض يعتقد أنه لن يعود مرة ثانية،فإنه يؤكد على أنه كاهن الكنيسة المعلقة،والكنيسة المعلقة هذه فى دمه وفى كيانه،ومصر نفسها فى كل ذرة منه،لكنه فى الوقت نفسه خادم للسيد المسيح يقوم بخدمته أينما يرسله،ثم أنه يؤمن أنه لكل شئ تحت السماء وقت.

ينفى مرقص عزيز أن يكون خروجه من مصر تم بالإجبار يقول: أنا مصرى لا يستطيع أحد أن يخرجنى من بلدى بالقوة أو بالإجبار، ربما يرجع السبب فى هذه الأقاويل إلى الأسلوب الردىء الذي يتبعه جهاز أمن الدولة معى عند سفرى أو رجوعى.

وحاولت الكنيسة من جانبها أن تنفى أن يكون مرقص عزيز خرج من مصر بطريقة غير طبيعية،لكنها كالعادة فعلت ذلك بطريقة غير مباشرة فلم تتصدَّ هى للموقف،ولكن تصدر للموقف مركز الكلمة الذى يرأسه ممدوح نخلة المحامى،حيث أصدر بيانا أكد فيه أن لا صحة لما تردد من شائعات حول خروج القمص مرقص عزيز من مصر.

وكانت الشائعات تدورُ حول أن مرقص عزيز اعتنق الإسلام وأن الكنيسة غضبت عليه واعتقلته وأخفته فى أحد الأديرة البعيدة،ولا أحد يعرف عنه شيئًا إلا مجموعة صغيرة من رجال الدين المسيحى،وأنه غير مسموح له بالاتصال بأحد خارج الدير المحبوس فيه.

أما الشائعة الثانية فكانت أن إحدى الجماعات الأصولية المتطرفة قد قامت بخطف القمص مرقص عزيز، وأنه قتلته بسبب تكرار هجومه على الإسلام.

لكن شائعة ثالثة أن الأمر لا يزيد عن تهديدات تلقاها مرقص عزيز من

الجماعات المتطرفة وأن الكنيسة حتى تحافظ عليه فقد قامت بإبعاده عن مصر حفاظا على حياته.

نخلة صرح للعربية نت بأنه أجرى اتصالا بمرقص عزيز فى محل إقامته بأمريكا وأن قاله له أنه سافر إلى أمريكا مبعوثا من البابا شنودة فى مهمة تتعلق بالوعظ فى إحدى الكنائس بأمريكا.

نعود إلى حوار مرقص عزيز مع «أقباط متحدين»، و نأتى إلى بيت القصيد فيه،فمعاملة مرقص عزيز فى المطار كما يقول هو كانت سئية من قبل ضباط مباحث أمن الدولة،وأتركه له هنا المساحة كاملة ليروى تفاصيل ما جرى.

يقول مرقص عزيز:ضباط أمن الدولة يحتجزوننى فى كل مرة بالمطار ويدخلوننى مكتب أمن الدولة ويتم تعطيل الطائرة ويتم إنزال الحقائب مرة أخرى بعد وضعها بالطائرة وإعادة تفتيشها.

وفي المرة الأخيرة- مرقص عزيز لا يزال يواصل ما جرى معه- كان تصرفهم معي مستفزًا بصورة غير عادية،وبالطبع تعطلت الطائرة عن موعدها كالعادة حوالى ساعة، وقاموا بالاتصال بالسيد وزير الداخلية الذى حسم الموضوع.

وكانت الصورة قبيحة أمام الجموع المتواجدة بالمطار،والمشهد سخيف كاهن محاط بعدد كبير من رجال أمن الدولة لا أعرف من أين جاؤوا، وكنت قد عرفت فى إحدى المرات من الضابط المسؤول أن هدفهم من التفتيش الشديد الذى يتم معي هو البحث عن أي أوراق.

فقلت للضابط: لا يوجد قبطى يخون بلده لأنه ابن البلد الحقيقى.

وسألته: هل سمعت عن الفاكسات والإنترنت؟

فأجاب: نعم.

قلت له: لو أراد شخص خائن إدخال أو إخراج أوراق فما أسهل أن يرسلها بالفاكس أو الإنترنت، فلماذا تفعلون هكذا؟هل هى غلاسة؟، هل تتصورون أننا

ستتخلى عن بلادنا و نتركها؟

فقال: أنا عبد المأمور.

ومرة أخرى قام أحد الضباط بالإمساك بقطعة من الملابس وقرأ عليها مكان الصناعة وقال لى: هافتلها فتلاية فتلاية – أى أنه سيحولها إلى خيوط فتل.

فقلت له: هناك مثل بيقول يا آبا علمنى الهيافة، قال له روح في الهايفة واتصدر.

فثار وانفعل فطلبت قائده الأعلى الذى اعتذر وهدأت الأمور.

هذه الصورة الكاريكاتيرية التى رسمها مرقص عزيز لخروجه من مصر لا يمكن أن أكذبه فيها،لكن من حقى أن أعتبر ما قاله مبالغاً فيه،هذا إذا كان خروجه من مصر كان أمرا عاديا لا شئ فيه،ولو كان ما حدث فى مطار القاهرة صحيحا فإن معناه أن أمن الدولة أخرج مرقص عزيز من مصر على عينه،ولم يكن ما حدث إلا نوعا من المضايقة،لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا معه شئيا أكثر من ذلك.

لقد حاول مرقص عزيز أن يصور نفسه مواطنا مصريا صالحا،وأن ما يقوم به فى أمريكا ليس إلا تكليفا من البابا وخدمة للمسيح،فعندما سألوه: البعض يقول أنك ممنوع من الكتابة أو الظهور فى أى من الصحف المصرية أو أى قناة تليفزيونية يمكن أن تستضيفك هاتفيًا؟ قال:هذا غير صحيح فقد استمررت في كتابة مقالى الأسبوعى لقاء الأحد بجريدة الوفد لعدة شهور بعد سفرى، ولكن كثرة المشغوليات هى التى منعتنى من الاستمرار، وعند الضرورة أقوم بالكتابة.

وعندما سألوه:هل حقا كانت هناك نية لترتيب مظاهرات كنت ستشارك فيها فى حال قيام الرئيس مبارك بزيارة أمريكا؟قال: أنا لست بهذه السذاجة حتى أفعل هذا الشيء،لا لأننى أرفض أن يدافع الأقباط عن حقوقهم المشروعة والمسلوبة بل المنهوبة، ولكن لأننى أعلم أن هناك الكثيرين من بين المسؤولين سواء فى الإعلام أو المناصب العليا مصابين بمرض اسمه الاستقواء بالخارج وبالذات أمريكا، ولأنني كاهن قبطى وأمثل الكنيسة العريقة الأرثوذكسية أتمنى أن أقوم بهذه

المظاهرة عند عودتى إلى القاهرة وليس في الخارج، كما أن الرئيس مبارك هو رئيس بلدى، حقا ظلمنا كأقباط ولم يعطنا حقوقنا وسيسجل له التاريخ ذلك ولكننى أثق أن فى داخل مصر رجال من الأقباط لن يكلوا ولن يملوا من المطالبة بحقوقهم، كما أننى سأترك الرئيس لله الذى سوف يحاسبه في يوم الحساب وأدعو له أن يتذكر يوم وقوفه أمام الله الديان.

لا يمكن أن أقول: إن مرقص عزيز رجل كاذب،فأنا لا أرمى الناس بالكذب دون دليل،لكن يمكن لى أن أقول أنه رجل يبالغ طول الوقت فيما يتعرض له،خذ عندك مثلا الحادث الذى تعرض له فى شارع الهرم بالقاهرة،وهو شارع ليس هادئا بطبعه بل مزدحمًا.

حكى عزيز الحادث الذى تعرض له قبل أن يترك مصر بشهور قليلة وتعامل معه على أنه محاولة اغتيال والمعنى واضح،فهو يريد منذ البداية أن يوحى أن هناك مؤامرة كانت تحاك ضده وأنه نجا منها بأعجوبة.

الرواية تأتى على لسان مرقص عزيز هكذا:كنت فى طريقى بشارع الهرم ومع بعض أفراد الأسرة،تحديدا طفلين من أحفادى،وفجأة شعرت أن السيارة صدمت من الخلف بقوة،تجمع الناس الموجودون فى الشارع،وتضامن معى المسلمون والمسيحيون فى ضرورة إيقاف سائق الأتوبيس الذى حطم السيارة خاصة أنها كانت جديدة.

جاءت الشرطة وأصر مرقص عزيز على أن يحرر محضرا للسائق،ركب الأمين مع سائق الأتوبيس وقال لمرقص عزيز أنهم سيسيرون خلفه إلى قسم الشرطة،لكن وكما قال مرقص بعد أن سار مسافة صغيرة جدا،وجد أن سائق الأتوبيس يصدمه مرة ثانية وبعنف وبقصد هذه المرة.

فى قسم الشرطة – وكما يقول عزيز – سأل الضابط سائق الأتوبيس هل صدمت عربية القمص؟ فقال له: نعم ضربته،فقال له: يعنى إيه ضربته؟قال له

:ضربته مرتين،طلب منه الضابط الرخص وقال له:يا أبونا تعالى بكره عشان تاخد المحضر ثم صرف سائق الأتوبيس ليعود إلى بيته.

الحادث الذى يمكن أن يتعرض له أى مصرى فى أى طريق يتعامل معه مرقص عزيز على أنه محاولة اغتيال،وهذا طبيعى فى شخص يبالغ فى كل شيء يتعرض له،بل كان يعتبر نفسه وهو هنا فى مصر مستهدفا من المسلمين الذين يريدون أن يذبحوا الأقباط على قارعة الطريق.

إننا أمام حالة غامضة،لكن تفسرها رواية منسوبة إلى الدكتور يحيى الجمل الفقيه الدستورى الكبير والوزير السابق والذى عمل فترة طويلة من حياته فى سلك النيابة،حيث قال إنه كان يحقق مع أحد الكهنة بتهمة تنصير فتاة،وقام بسجنه،إلا أنه تلقى مكالمة من البابا شنودة يطالبه فيها أن يسهل مهمة خروج الكاهن من مصر،لأنه عقد اتفاقا مع أمن الدولة يخرج بمقضاها الكاهن من سجنه مقابل أن يخرجه البابا من مصر نهائيا،وبذلك تنتهى هذه الأزمة تماما،فلا يعود الكاهن إلى ما سبق وعمله،ولا تتورط الحكومة فى سجن رجل دين مسيحى.

طلب يحيى الجمل من البابا شنودة مهلة من الوقت ليجرى خلالها اتصالاته بالمسؤولين،وبالفعل أجرى هذه الاتصالات مع وزيرى الداخلية والعدل،ولما تأكد أن هناك صفقة بالفعل سهل خروج الكاهن.

هذه الحكاية لو صحت يمكن تطبيقها على حالة مرقص عزيز،لا أحد على وجه التحديد يعرف ما فعله،لكن يمكن أن يكون فعل ما يستدعى صفقة أخرى لخروجه من مصر فينتهى إزعاجه،والله أعلم مع من تمت الصفقة هذه المرة.